بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢). وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١). وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١). أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَلَا بِكَثْرَةِ الْكُتُبِ، وَإِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُنَوِّرُ الْقَلْبَ وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرِيرَتِهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ. وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يُكْثِرُونَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّهُ يَحْجُزُ الْعَبْدَ عَنِ الْمَعَاصِي قَبْلَ أَنْ يَحْجُزَهُ عَنْهَا الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ الْمُرَاقَبَةَ أَرْفَعُ مِنَ الْخَوْفِ وَأَدَقُّ فِي الْعَمَلِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ مَنْ حَفِظَ الْمُتُونَ وَأَتْقَنَ الْحَوَاشِيَ، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْقُلُوبِ أَوْ عَنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ فِي الْخَلْوَةِ تَلَعْثَمَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ إِلَى الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا بَقِيَ فِي الذِّهْنِ وَاللِّسَانِ. وَمَا أَحْوَجَنَا فِي هَذَا الزَّمَانِ إِلَى أَنْ نُعِيدَ لِلْعِلْمِ رُوحَهُ وَلِلْعَمَلِ بِهِ مَكَانَتَهُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِلَا عَمَلٍ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ وَالْعَمَلَ بِلَا إِخْلَاصٍ هَبَاءٌ مَنْثُورٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة: ٥). وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢). فَالْإِخْلَاصُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ، وَهُوَ الْمِعْيَارُ الَّذِي تُوزَنُ بِهِ الْأَقْوَالُ، وَهُوَ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَ عَمَلٍ يُرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ وَعَمَلٍ يَتَبَخَّرُ فِي الْهَوَاءِ. وَقَدْ ضَرَبَ السَّلَفُ أَمْثِلَةً عَظِيمَةً فِي هَذَا الْبَابِ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ فَلَا يَدْرِي مَنْ رَآهُ مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ يَبْكِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَلَا يَعْلَمُ بِبُكَائِهِ أَحَدٌ، وَكَانَ يَتَصَدَّقُ بِالصَّدَقَةِ فَتَكَادُ يَدُهُ الْيُمْنَى أَنْ تُخْفِيَهَا عَنِ الْيُسْرَى. وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الْخَفِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَثْقُلُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الْمُؤْمِنُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، لِأَنَّهَا لَا تَشُوبُهَا شَائِبَةُ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ. وَمَا أَسْهَلَ الْكَلَامَ عَلَى النَّاسِ وَمَا أَصْعَبَ الصَّمْتَ عَنْهُمْ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَتَكَلَّمُ لِيُسْمِعَ وَمَا أَقَلَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ لِيَنْتَفِعَ، وَمَا أَحْوَجَ الْعَبْدَ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ أَنْ يَسْأَلَهَا: لِمَنْ أَعْمَلُ؟ وَلِمَنْ أَتْعَبُ؟ وَلِمَنْ أَسْهَرُ لَيْلِي؟ فَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. وَلَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ الصَّالِحِينَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ عَمَلِي هَبَاءً مَنْثُورًا». وَهَذَا الدُّعَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَدْرِي مَا يَحْبَطُ عَمَلَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُحْبِطُ الْعَمَلَ الْعُجْبُ وَالْكِبْرُ وَالْمَنُّ بِالطَّاعَةِ عَلَى اللَّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ آفَاتِ النَّفْسِ الَّتِي لَا يَسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: رُبَّمَا أَعْمَلَ الْعَبْدُ عَمَلًا يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْجُو بِهِ فَيَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِ، وَرُبَّمَا أَعْمَلَ عَمَلًا يَظُنُّ أَنَّهُ يَهْلِكُ بِهِ فَيَكُونُ سَبَبًا فِي نَجَاتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَتُورِثُهُ الْعُجْبَ وَالْغُرُورَ، وَقَدْ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَتُورِثُهُ الْخَوْفَ وَالْإِنَابَةَ وَالتَّوْبَةَ، وَالْعِبْرَةُ بِمَا يَخْتِمُ اللَّهُ لِلْعَبْدِ لَا بِمَا يَظُنُّهُ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ عَجَبًا، رَأَيْتُ مَنْ يَتْرُكُ الْمَعَاصِيَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ فَيَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِمَّنْ يَتْرُكُهَا حَيَاءً مِنَ النَّاسِ، وَرَأَيْتُ مَنْ يَتْرُكُ الْمَعَاصِيَ حَيَاءً مِنَ النَّاسِ فَيَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِمَّنْ يَتْرُكُهَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَر